

# مظاهر النشاط الثقافي في كتابات عبدالرحمن الأخضري

بقلم أ/ شخوم سعدي

تعتبر دراسة أعلام الجزائر في العصر الحديث، من أهم المواضيع التي مازالت تحتاج إلى البحث والتقصي، وإن وجدت فهي تركز على الأعلام الذين اشتهر أمرهم وذاع صيتهم وظهرت تأليفهم وحتى هؤلاء الأعلام المترجم لهم نجدهم في بيئات وفترات تكفي نسبتهم إليها لكي يشيع ذكر هؤلاء الأعلام بين الناس وقلما نجد علما وجد في منطقة مغمورة وزمن مخضرم يذيع صيته، ومن هؤلاء العلماء نجد عبد الرحمن الأخضري الذي ظهر في بنطيوخس أحد قرى الزاب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، وبالتالي كان الأخضري في منطقة تكاد تكون مغمورة وفي فترة انتقال بالنسبة للزاب تمثلت في بداية العهد العثماني، ومع ذلك فإن هذا العلم الذي تفنن في أغلب الفنون ذاع صيته ولعل هذا راجع إلى انتشار كتبه التي كثرت شروحها والتعليق عليها.

وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء المزيد من الأضواء على هذه الشخصية العلمية التي ظهرت في بداية الفترة الحديثة للجزائر واكتنف سيرتها الذاتية

الكثير من الغموض مما يصعب ترجمتها، فلا نكاد نجد فيما توفر بين أيدينا من مصادر أو مراجع تعطينا تفاصيل سيرة هذه الشخصية الجزائرية وأغلب الكتب التي تحدثت عن هذه الشخصية جاءت متأخرة عن القرن العاشر الهجري ولعل أقرب مصدر أشار إلى هذه الشخصية لكنه لم يفصل الشيء الكثير عنها كان الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني صاحب كتاب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار والذي يعرف بالرحلة الورثيلانية، وكذا خليل بن صالح الحسيني العياشي صاحب الرحلة ومحمد بن ناصر الدرعي صاحب الرحلة كذلك فهؤلاء نتيجة رحلتهم ومرورهم بينطيوخس بالزاب تحدثوا عن هذه الشخصية، لكنهم لم يفصلوا في ترجمتها إلا الشيء اليسير، وسنحاول خلال هذا البحث الحديث عن ملامح هذه الشخصية وآرائها الفكرية وأهم تأليفها وخصائصها العامة وكذا أثرها على الاتجاه العام الذي كان يغلب عليه التصوف في تلك الفترة ومع ذلك تبقى هذه الدراسة محاولة لإبراز أهم معالم هذه الشخصية التي لا زالت أهم جوانب سيرتها مجهولة لحد الآن خاصة السياسية.

#### \*الأخضري والاختلاف في مولده ونشأته:

لعل ما يلاحظ الدارس لحياة الاخضري هو الاختصار في ترجمته في أغلب الكتب التي ترجمت له، ومع ذلك فإنه يمكن بناء ترجمته بالاعتماد جمع هذه التراجم وكذا ما يورده من كلامه في بعض كتبه، والأخضري هي كنيته أما اسمه وهو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري ولد سنة 920هـ وقد نشأ في محيط علمي فأباه وهو أحد شيوخه

كان أحد علماء بنطيوس القرية التي نشأ بها عبد الرحمن الأخضرى<sup>(1)</sup>، وكان من أهل الفقه يحمل بعض الخصائص التي كانت لابنه عبد الرحمن فهو ينقل نقد أبيه الشيخ محمد الصغير الأخضرى لبعض متصوفة عصره قائلا: <sup>(2)</sup>

|                             |                           |
|-----------------------------|---------------------------|
| قد أحسن الوالد العبارة      | إذ قال قولا صادق الإشارة  |
| بل هتكوا محارم الشرع القويم | فنكبوا عن الصراط المستقيم |
| فكان يتهم إلى الدجال        | فأرحمه ياذا الفضل والنوال |

والظاهر أن عبد الرحمن الأخضرى لم يكن كثير الترحال والتنقل لذا لا نكاد نجد له ترجمة في الكتب التاريخية لتلك الفترة، وكان متمكنا من العلم حيث أنه بدأ في التأليف منذ سنة السابعة عشر<sup>(3)</sup>، لكننا من جهة أخرى نجد أنه في منظومته المسماة بالسراج يختم قائلا فيها:

سنة تسع وثلاثين مضت      من بعد تسعمائة قد انقضت<sup>(4)</sup>

ومن خلال هذا البيت يمكن أن نقول أنه من مواليد 922هـ ويذهب المتأخرين إلى أنه ولد سنة 918هـ<sup>(5)</sup>، لكن مع ذلك فإن صيت هذا العالم كان قد فاق حدود قرينته بنطيوس ليصل أغلب الشرق الجزائري وهو ما يتضح في تراجم عبد الكريم الفكون في كتابه منشور الهداية<sup>(6)</sup>، ويمكن أن نقول أن الأخضرى كان أقرب إلى المدرسة التي ينتمي إليها الفكون التجديدية الإصلاحية منه إلى التصوف، ويبدو من جهة أخرى أنه كان في خط المواجهة

مع منحرفي المتصوفة وهذا يظهر في شعره<sup>(7)</sup>، ومن تأثر بهم الأخضري كذلك عالم آخر ينتمي لهذه المدرسة وهو الشيخ أحمد زروق عند قوله<sup>(8)</sup>:

|                        |                        |
|------------------------|------------------------|
| ففي كتاب شيخنا الزروق  | فوائد بدیعة الفتوق     |
| إذا رأيت رجلا يطير     | أو فوق ماء البحر يسير  |
| ولم يقف عند حدود الشرع | فإنه مستدرج وبدعي      |
| فأرفضه إنما الفتى دجال | ليس له التحقيق والكمال |

ويمكن الاستنتاج بذلك أن عبد الرحمن الأخضري كان ينتمي لهذه المدرسة التي لاحظت مدى الانحراف الذي وقع فيه بعض المتصوفة المتأخرين فوقفوا لهم بالمرصاد، ومع كل هذا فإن الأخضري لم يكن من المعمرين فقد توفي سنة 983هـ اعتمادا على ما جاء في منظومته على الأجرمية<sup>(9)</sup> :

وكان محرم الحرم بدءا وختما لها النظام  
في عام إحدى وثمانين

غير أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يرجح أنه توفي سنة 953هـ<sup>(10)</sup>.

إن هذا الاضطراب في تاريخ وفاة عبد الرحمن الأخضري هو إشارة إلى قلة أو هي انعدام التراجم الخاصة به عدا منظومة أبو محمد أحمد بن داوود في رسالته "العقد الجوهري في التعريف بالأخضري"، وللأخضري كتباً تحمل مجمل آرائه وهي التي نال بها الشهرة أكثر من سيرته خاصة أرجوزته المعروفة بالرسالة القدسية في التصوف.

## موقف الأخضري من التصوف:

يحمل أهم مؤلف للأخضري إشارات تدل على أن عبد الرحمن الأخضري لم يكن في خط التصوف خاصة في منطقة مثل منطقة الزاب فقد أشار أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي<sup>(11)</sup> في كتابه المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب إلى هذا الانحراف عندما تحدث عن ظهور طائفة من المتصوفة سنة 786هـ/1384م وتحدث عن خلطهم بين الذكر والغناء والرقص والضرب بالأكف حتى آخر الليل وإن الزوايا أصبحت مكانا للولائم وإنشاد الشعر، حتى أن بعض النساء اقتفين آثارهم في ذلك وذكر الونشريسي أن غلاة المتصوفة كانوا يتركزوا في الحصون والقرى البعيدة عن الحواضر ليظهروا ما انطوى عليه باطنهم<sup>(12)</sup> وهذا الوصف أشار إليه الأخضري متحاملا عندما قال<sup>(13)</sup>:

|                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| فهذه طريقة الرجال    | وآل أمرها إلى الزوال  |
| وكثر الملبسون فيها   | وصار أهل البدع يدعيها |
| وأسفى على الطريقة    | أفسدها طائفة الدجاجة  |
| قد ادعوا طريقة بدعية | ورفضوا طريقة شرعية    |
| إلى أن يصل:          |                       |

يا ويلى هذا زمان البدع مات فيه أهل التقى والورع  
ولم يكتف الأخضري بهذا النقد اللاذع الذي كان يوجهه لمتصوفة بل  
كان ينقل عنه الاستهزاء بهم<sup>(14)</sup> ويظهر من خلال كلام خصومه أنهم كانوا  
يظهرون العداوة اتجاهه<sup>(15)</sup>.

### تصانيف الأخضري ومجالاتها:

الملاحظ أن أغلب تآليف الأخضري كانت عبارة عن أراجيز عدا كتابه في الفقه المالكي، لذا فإن الأخضري يوصف بأنه أديب فيلسوف أكثر من كونه فقيه أو متصوف، ومع ذلك فإن المطالع لكتبه يستنتج أن هذا العلم الجزائري كان ضالعا في أغلب العلوم ويمكن تصنيف مؤلفاته كما يلي:

في الفلسفة و المنطق: واشهر هذه المصنفات السلم المرونق في علم المنطق وقد نظمته وهو ابن واحد وعشرين سنة وهذا سنة 491هـ حسب بعض المؤرخين، وقد اهتم الجزائريون بهذا المصنف في المنطق حيث كثرت شروحه ومنها:

- شرح محمد الصالح بن سليمان العيسوي الزواوي<sup>(16)</sup>
- شرح معزوز البحري المستغامي<sup>(17)</sup>
- شرح السلم المرونق لسعيد بن إبراهيم قدوة الجزائري<sup>(18)</sup>.
- وله رسالة أخرى في المنطق هي تحفة الحكام بمسائل التداعي و الأحكام<sup>(19)</sup> في علم الفلك:

وهو من العلوم التي برع فيها حيث أنه ألف في مقبل عمره كتاب السراج، وألف بعده وهو ابن عشرين سنة رسالة أزهار المطالب (أو الطلاب) في علم الاسطرلاب<sup>(20)</sup> وعلى غرار الرسالة السابقة فقد اهتم الجزائريون برسالة السراج في الفلك كذلك عبر شرحها ومن أهم شروحاتها:

- المحتاج في شرح معاني السراج لمحمد الصالح الرحوني<sup>(21)</sup>

- مفيد المحتاج على المنظومة المسماة بالسراج لسخنون بن عثمان  
الونشريسي<sup>(22)</sup>

في التصوف:

وأشهر رسائله رسالة القدسية، والظاهر فيها أنه كان شديد التحامل  
على المتصوفة المتأخرين وقد حاول فيها إبراز الخط الصحيح للتصوف حسب  
مذهبه في ذلك<sup>(23)</sup>.

في اللغة والبيان:

وأهم رسالة التي وصلت بالبحث هي رسالته المسماة: الجوهر المكنون  
في صدق الثلاثة فنون المعاني والبيان والبدیع، وقد قام الأخضري نفسه  
بشرحها.

في الفقه:

ومن أهمها رسالة الدرة البيضاء في علمي الفرائض والحساب وقد قام  
بشرحها، ومن شرح هذه المنظومة كذلك على غرار الأخضري عبد اللطيف  
المسبح المرداسي<sup>(24)</sup> ومن كتبه في الفقه كذلك رسالة في مذهب الإمام  
مالك، تحدث فيها عن الأخلاق العامة وما ينبغي معرفته من العلوم الدينية وقد  
قام بشرحها عبد اللطيف المسح السابق الذكر<sup>(25)</sup>.

وهكذا فقد تفنن الأخضري في التأليف في مختلف الفنون واستطاع أن  
يبرز عبرها مدرسة من المتصوفة ممن غلب عليها العلم وقد تلقى الجزائريون  
كتبه التي فاقت الثلاثين بالقول واقتبلوا على شرحها، وقد كانت من أهم

المراجع حتى لدى طابه العلوم الدينية في المشرق العربي كما يذكر صاحب شجرة النور الزكية<sup>(26)</sup>.

وأخيرا يمكن القول أن عبد الرحمن الأخضرى اشتهرت علومه وتصانيفه أكثر مما اشتهرت شخصيته، وكان لكتبه دورا واضح في تمييز تيار متدين ذو نزعة إصلاحية هي ابعد عن انحرافات بعض المتصوفة، ومازالت هذه الشخصية التي تعد من أعلام القرن العاشر تحتاج إلى مزيد من البحث خاصة وأن اغلب كتبها لا زالت طي النسيان في اغلب زوايا ومكتبات الجزائر.

#### الاحالات:

- 1- محمد بن مخلوف- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت (صورة بالأوفست عن الطبقة الاولى 1349هـ)، ص 86.
- 2- عبد الرحمن الأخضرى، المنظومة القدسية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2646، ورقة 45
- 3- المهدي البوعدي، عبد الرحمن الاخضرى وأطوار السلفية في الجزائر، الأصالة عدد 53 (صفر محرم 1389/ جانفي 1978) ص-ص: 20-35، ص: 25.
- 4- نفسه.
- 5- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 14.
- 6- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في الكشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987 ص: 118.
- 7- الاخضرى، المصدر السابق، ورقة: 45.
- 8- نفسه، ورقة: 44
- 9- المهدي البوعدي، المرجع السابق، ص: 23.

- 10- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1985، ج1، ص: 509.
- 11- أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي ( 834 - 914 هـ / 1430 - 1509 م ): من أعلام مذهب الإمام مالك في القرن التاسع الهجري، انتهى به الأمر إلى فاس له غرار المعيار إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك والوفيات والفهرسة: نويهض، أعلام الجزائر، ص: 344
- الحفناوي، تعريف الخلف، ص-ص: 62-63
- 12- كمال أبو مصطفى، هو ابن من حضارة المغرب الإسلامي. من خلال نوازل، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1997، ص: 106.
- 13- الأخضري، المصدر السابق، ورقة: 44.
- 14- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق.
- 15- نفسه.
- 16- محمد الصالح بن سليمان العيسوي الزواوي الرحموني: ( 1152 - 1242 هـ / 1739 - 1826 م )، لغوي وأديب تعلم بتونس، له من التأليف: ميزان الباب في قواعد البناء و الإعراب والدليل على الأجرومية: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص - ص: 533 - 543، نويهض، أعلام الجزائر، ص: 146.
- 17- معزوز البحري المستغامي: كان في أوساط القرن 12 هجري (18 ميلادي)، وهو فقيه مالكي له شرح لمثن السنوسية: الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص: 582، نويهض، أعلام الجزائر، ص: 298.
- 18- أبو عثمان سعيد بن إبراهيم قدوة ولد بتونس وكان مفتي الجزائر، اخذ عن سعيد المقرئ له حاشية على خطبة اللقاني على الصغرى للسنوسي توفي سنة 1066 هـ / 1656.
- 19- توجد نسخة منه مخطوطة بزاوية الشيخ بلعشم بتندوف.
- 20- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص: 23.
- 21- نويهض، أعلام الجزائر، ص: 146
- 22- سحنون بن عثمان الونشريسي: كان في أواخر القرن الخامس عشر الهجري (أواخر القرن السادس الميلادي)، فقيه من مليانة ومدينة الجزائر.
- الحفناوي، تعريف الخلف، ص: 156

- 23-الأخضري، المنظومة القدسية، ورقة45، ورقة46
- 24-عبد اللطيف المسبح المرداسي، مفتى قسنطينة، وكان فقيها وقد توفي سنة 980هـ.
- الحفناوي، تعريف الخلف، ج2، ص:232
- 25-نفسه.
- 26-مخلوف، شجرة النور الزكية، ص86.
- 27-نفسه.
- 28-مخلوف، شجرة النور الزكية، ص86.